الفارغة».

2003 01 03 - 0001 - 7

في خصائص المعادن - تغريبة عام

وداد حلواني

نورين أكارول - رئيسة المكتب الإعلامي في السفارة الإسرائيلية في ايرلندا الشمالية - طُردت من وظيفتها.

السبب: أنها اعربت لإحدى الصحف البريطانية عن استيائها من الحكومة الاسرائيلية بسبب الهجوم الذي شنته قواتها العسكرية على مبنى سكني في مدينة غزة. وكان الهجوم المذكور قد اسفر عن مقتل ١٥ شخصا نائما، بينهم ٩ اطفال. انه يا نورين مزاج اسرائيلي مبارك اميركيا ومتكئ على صمت عربي.. في بيجينغ، وهربا من موجة الحر الشديد التي سيطرت الاسبوع الفائت، نُعم جرو صيني يبلغ شهرين من العمر، بقيلولة هانئة على سريره الوثير، وفرتها له يد حنونة، من خلال وضع وسادة خاصة تحت رأسه، عبارة عن قارورة ناعمة الملمس من المياه الباردة.

احلاما سعيدة ايها الطفل.

اما صديقه كاندولا، الفيل الذي يبلغ ثمانية اشهر من عمره، وفي المقلب الآخر من الكرة، نعم بدوره بقسحة منعشة، أمنها له محبوه، قرب حوض للسباحة مع كرة يلهو بها، علّه ينسى درجات الحرارة التي بلغت ٣٥ درجة مئوية في مكان اقامته، في حديقة الحيوانات في واشنطن.

المزاج «رايق» وسليم...

انه انجاز بشري لصالح الرفق بالحيوان..

فهل يتسع للرفق بالبشر؟

بآخر ذلك الليل، ليل ٢٢ تموز ٢٠٠٢، أبى مزاج ذلك الصاروخ، اثناء تجواله في حي الدرج في مدينة غزة، إلا ان يستجيب للشهوة الشارونية، فعرج على فراش دنيا مطر يدغدغها..

قوة إلهية بالتأكيد حالت دون تمزق جسد ابنة الشهرين. تم انتشال جثة دنيا كاملة من تحت الانقاض، من بين الاشلاء البشرية المتناثرة.

لا تيئسي يا دنيا، ربما وفرت لك دنياك الثانية مثل ما ينعم به الجرو الصيني وصديقه الفيل الاميركي ومن لف لفهما من الفصائل الحيوانية المدللة، من الأجناس صاحبة الحقوق المصانة.

فهل يُعتبر ذلك انجازا عسكريا «ناجزا»، كما جاء على لسان أرييل شارون؟

***

في صبيحة آخر شهر تموز، يدخل الموظف «احمد منصور» مكان عمله في وزارة التربية والتعليم العالي، يحتسي بهدوء فنجان القهوة مع احدى زميلاته، وبهدوء ايضا، يفتح محفظة، يُخرج منها رشاشا حربيا وقنابل يدوية، ويشن حرب إبادة على جميع من كان في المكاتب ساعتذاك («ساعة تخلّ»، على حد وصف قائد شرطة بيروت عندما حضر الى ساحة الجريمة).

المحصلة: ثمانية قتلى، بمن فيهم زميلة القهوة الصباحية، وخمسة جرحى. من متابعة اخبار هذه الجريمة وبطلها، ربما جاز الاستنتاج، بأن الدافع الى ارتكابها، هو اسلوب احمد منصور في الاحتجاج على مطالبته بتسديد دين تعذر عليه إيفاؤه.

رأي علم النفس (د. احمد عياش): «... ان ظاهرة الانتحار تتسع في لبنان، فقد بلغت حسب الارقام الرسمية لعام ١٩٩٩ ما مجموعه ١١٣ حالة، ربما كانوا مشروعا احمديا منصوريا، إلا انهم آثروا التدمير الذاتي». تصريح مرجع قضائي عال: «ان قوى الأمن الداخلي قامت بواجبها على احسن ما يرام، فحضرت فورا الى المكان، وألقت القبض على القاتل الذي تمكن من ادخال السلاح بسهولة، وان الاسباب الدافعة مادية ولا علاقة للطائفية بها». استمر اطلاق النار عشرين دقيقة بشهادة احد الناجين.

قرار مجلس الوزراء: احالة هذه الجريمة الى المجلس العدلي. نعمى للمزاج الهادئ ايها الـ«منصور».. وتحية لا طائفيتك التي أكد وشدد عليها مرجع مسؤول.

فلماذا تحتجون ايها الضحايا على احتجاج زميل لكم.. فللضرورة احكام؟؟ خير عزاء لكم يا اهاليهم: الانجاز يضاف الى سجلات دولة القانون والمؤسسات.

***

أغلق زياد بهدوء باب البيت المعلق في الطابق السابع من مبنى يقع في حي مكتظ، في مدينة تجمع كل التناقضات، وخرج مسرعا.

عندما وصل الى الشارع، لم يشأ التطلع باتجاه شرفة منزله، حتى لا يرى اوراقه وكتبه المتطايرة، خشية ان تراوده فكرة اعادة للمتها. أراد الشاب النحيل ان يستقيل من كل شيء، ان يستقل عن كل شيء وعن اي كان.

ومشى تحدوه رغبة في العثور على مكان خارج الأمكنة، على فراغ خارج الفراغ الذي يستلبسه في المدينة وناسها وأحيائها، اراد ان يخرج حتى من جلده.

وجد ملاذا في جب من الاشواك والنباتات الابرية والعليق، في قعر واد جاف، كان قد لفته يوم تعرف على بيت جده (الذي مات قبل ان يولد هو) المهجور في احدى قرى الجرد النائية.

افترت شفتاه عن ابتسامة الرضى. وبفرحة الطفل الذي وجد لعبته المحببة بعد ان ضاعت منه، خلع منه وعنه كل شيء، وارتمى في حضن تلك الكومة الشوكية مستسلما للنوم.

هناك، أحس بالأمان... غابت عن ناظريه كل مظاهر الحضارة التي غالبا ما يراها تافهة، غابت عن أذنيه ثرثرة الأهل والجيران.. ارتاح من عكرة الاصحاب وصخبهم.. نجا من وقع صوت والده اليومي، كالنشيد الوطني، عندما يستعيد يوميا ما قرأه في صحف الصباح على مسامع أمه. اصبح في منأى عن لغط نشرات الاخبار وما تحفل به من نشاز متنقل بين هاتف خلوي يبغون خصخصته، واحتجاج اصحاب الفانات العاملة على المازوت على عملية خصيهم، واجواء المساكنة بالإكراه بين كبيري القوم، والتي كلما ارتجت، ارتج عقل البلد، وطارت عقول ناسه وجيوبهم. غفا زياد حتى الشمالة، وراح في رحلة بحث عن حلمه الهارب منه..

ولأن الحسّاد كثر في هذه المدينة، اعيد زياد اليها مخفورا، فاستباحته. أخضع لحفلة استشفائية، سرقت عشرين يوما من عمره، حشت معدته خلالها بكمّ من العقاقير، كمت فمه وكتمت أنفاسه. قادته الى حالة استسلام لنوم لا ينتهي، وأفقدته متعة الاحلام.

أبا الزوز.. لا «تحرد» مما حصل - ولو كان من دون استئذان - لا تحقد على القائمين به، احباء وأطباء. فلولا السلامة التي رجعت اليك، فسلام على الدنيا، وعلى احلامنا السلام ايها العزيز.

اعرف انك لن تأذن للمدينة بسرقة حلمك ثانية...

وتعرف انت انه ليس من عادات المدينة ان تغتال ساكنيها..

***

لم تهدأ سارة صبيحة ذلك السبت (٢٠ تموز ٢٠٠٢). وأول صفة تنطبق على طبيعة هذه الفتاة، ابنة التاسعة، هي «ورشة» (بكسر الواو وتصح بفتحها ايضا)، كل مرة تحدّثت عنها امها.

كانت وقتذاك شديدة الالحاح على امها كي تسرع في انجاز عملها، وذلك من اجل الانطلاق في رحلة آخر الاسبوع الاعتيادية الى جرجوع، الى تلك الضيعة الجنوبية القابعة بعيدا عن ضوضاء المدينة وحواجزها.. الى حضن جدها الذي ينزع الى كسر كل طقوس التربية الحديثة ويمعن في تدليلها..

هناك، تتفلت سارة من قواعد الانضباط المفروضة داخل جدران البيت والتي تعيق من حركتها ونشاطها الدائمين.

هناك، تسقط معايير التهذيب والأدب المتّبعة والتي تمنع صوتها ان يأخذ مداه عندما تصدح غناء، او تفرقع ضحكا، او تضج لعبا وصراخا وعراكا مع كريم، شقيقها الوحيد ورفيقها وغريمها، والذي تتغير مواقعه هذه وفقا للمناسبة والمزاج...

كانت لجوجة، لدرجة انها لأول مرة في حياتها، بادرت الى كنس الشرفة والى تحضير الحقيبة اللازمة ونقلتها الى السيارة..

لجأت الى المساومة والاستفزاز اسلوبا لحث امها على زيادة سرعة السيارة.. «يبدو انها كانت على عجلة من أمرها» (على حد قول امها بعد حصول الحادثة). تمنت عليها ألا تخفض الصوت، كانت تُطعم آلة التسجيل الشريط تلو الآخر من دون استراحة.. ارادت ان تسمع كل الاغاني المحببة اليها.. ارادت كل شيء في ذات اللحظة..

كانت تحدّث أمها وكريم عن العصافير التي اشتاقت الى مطاردتها على شجيرات التين، اخبرتهما عن التهديد الذي وجهته الى عصافيرها في حال لم تُبق لها ثمارا.

كانت تخاطب الفراشات في حوار مفترض معهن، وتعلن لهن انها ستتفوق عليهن في الطيران هذه المرة..

كانت سارة اول من ترك السيارة، لم تتوجه الى البيت، الذي فتح ابوابه هذا الصباح أبكر من العادة، تهيؤا لاستقبالها. سبقتها قدماها الى الحقل لتوقظ العصافير والفراشات، ارادت تصفية الحسابات وتنفيذ جدول الاعمال الذي قررته معها.

لم تلتق سارة عصفورا واحدا، حسبت العصافير في جولة صغيرة بانتظار قدومها..

لكن، اين الفراشات يا ترى؟

لا بأس، قالت الطفلة، سألعب بدل إضاعة الوقت في الانتظار.. وفكرت في قرارة نفسها في ان اصدقاءها حكما عائدون، طالما ان السماء ما تزال زرقاء.. طالما ان الشمس ما تزال مشرقة.. طالما ان الشجرة ما تزال تحمل تينا.. طالما ان زهرات الجل لم تذبل بعد..

ما دام «جدو» هنا، فسيعودون...

ما بين الجد واللعب، استفاقت حبات بارود، من سلاح مسترخ بإهمال، داعبت رأس سارة..

لم يحمل رأسها هذا النوع من المداعبة.. لم تستطع سارة ان تحمل رأسها..

ختمت سارة فوهة تلك الباردة بالدم الاحمر، سطّرت مضبطة للتاريخ لكن مع وقف التنفيذ.. لملمت جسدها المطواع وقد استنبتت له جناحين، وطارت محلقة، تنشد اغنية الوداع، وتحلم بملاقاة عصافير الجنة؟؟ سارة.. هل ضاقت بك الارض ولم تعد تتسع لتستوعب دفق الحيوية والاحلام لديك، فقررت الرحيل الى فضاء اكثر رحابة وأكثر ارتفاعا.. الى فضاء لامتناه لا تحده قرارات، ولا تتدخل فيه ارادات وأمزجة ومصالح البشر؟؟

سارة.. هل حسبت «دنيا مطر» فراشة من الفراشات التي اضعتها في جرّجوع ذلك السبت، بعد ان غيرت مكان اقامتها، فعزمتِ على اللحاق بها كي تؤنسي وحدتها؟؟

سارة.. هل غادرت الى فوق احتجاجا على ما يجري تحت؟.

***

إليك سارة هذه الحكاية الصغيرة قبل ان تنامي.

المكان: مدينة بيروت، ساحة رياض الصلح، مبنى السراي الحكومي، حيث اعمل ووالدتك رحاب.

يوميا ومنذ حوالى السنة تقريبا، اعتادت مجموعة من الحمائم البيضاء ان تؤم شباك مكتبي القائم في المبنى المذكور، لتناول وجبة الافطار الصباحية. كمشة حبات من القمح او الذرة اضعها على حافة الشباك الخارجية كل صباح باستثناء ايام الآحاد والعطل الرسمية. انها مهمتي الاولى ساعة الوصول الى العمل.

لعب عامل التعلم او الغيرة (او الاثنين معا) دوره، فانضمت مجموعة من اليمامات، الرمادية اللون، الى سرب الزائرين. يبدو يا سارة ان الطيور تشبه الانسان احيانا، فقد اتفقت الحمائم مع اليمام على تنظيم جدول الزيارات، فجاء طبقيا، بنظري، على اعتبار ان الطيور الرمادية لا تحضر الى مائدة الطعام، إلا بعد انتهاء ومغادرة زميلاتها البيضاء. لم تجد يمامة ألفت هذا المكان بقايا قش لصناعة عش تضع فيه.

فتشت في الساحة وامتداداتها وجوارها.. دخلت شوارع وسط المدينة واحدا واحدا.. تسللت الى زواريبه.. لم تعثر على مرادها.. سألت بنات جنسها، فجاءها الجواب شفاهاً مقلوبة..

حارت بأمرها امام الصحراء المقفرة، امام الحائط المسدود بوجهها.. الاستحقاق بات وشيكا والوضع لا يقبل تدخلا او وساطة! أطرقت اليمامة لحظة، ثم ما لبثت ان شمّرت عن ساعديها عندما لمعت في رأسها الفكرة.

وفي غفلة من «سوليدير»، مالكة وسطنا التجاري، ومن وراء ظهر أناس هذا الوسط واهتماماتهم، بدأت يمامتنا تسرق ما تيسر لها توفره امامها من مخلفات ورش التهديم واعادة الاعمار والتجديد والتلميع، وتحملها تباعا الى حافة الشباك. كان يبدو عليها التعب والإعياء. انه عمل مضن لم تعتده من قبل، قامت به بالجهد الذاتي، من دون حاجة الى اي متعهد، أو مهندس أو استشاري.

بدأب ومثابرة، أنجزت اليمامة عشا يشبه كل أعشاش الطيور، ولا يختلف عنها بشيء سوى انه عش معدني..

في صبيحة اليوم الذي تلى، وأثناء أدائي المهمة الاولى، اطلقت اليمامة همهمة صغيرة مع حركة بسيطة منها أتاحت لي رؤية البَيض الذي وضعته.

حضنت الأم بيضها في ذلك العش، الذي لم تكن قد قامت له قائمة، في ذلك الوسط شديد العصرية، لو لم يأت مشابها لنسيجه الهجين الذي فُرض عليها. لكن ذلك لم يحل دون تنفيذ حاجتها، لم يستطع الغاء احتجاجها.. وأفاقت تُطعم فراخا، تسهر على نموها، تروي على مسامعها حكايات التاريخ ورؤيتها لمستقبل الأبناء. وعندما توقفت اليمامة عن الكلام، صفقت الفراخ بأجنحتها، وقامت بأول محاولة طيران.

هللت اليمامة فرحا، ضمت فراخها ضمة وداعية مرددة عليهم: غدا غدا يا أطفالي سوف تحلقون..

هل التقيت بهم سارة؟؟

***

سؤال احتجاجي: كنا على مقاعد الدراسة قد غيّبنا عن صفحة قلب، ان كل نوع من انواع المعادن له خصائصه ومميزاته، فلماذا شذ مفعول الحديد، اليوم، عن هذه القاعدة، مرة قتَلَ أحياء، واخرى خَلَقَ أحياء؟